سورة البقرة

المحاضرة الثانية

الآيات من 5 : 13

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وبعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

نواصل دروس التدبر على منهج أهل السنة والجماعة سائلين الله عز وجلّ أن يقينا الزلل، ونرجو تجديد نية طلب العلم - سواء تدبر أو غير تدبر- أن تكون للعمل وليس فقط للتَفَكُّه.

" أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(5)"

(أولئك) من هم ؟ هم الذين وصفهم الله بالأوصاف السابقة من إنفاق في سبيل الله وإيمان ويقين وإذعان لأمر الله.

(عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) لماذا جاءت (هدى) نكرة ولم تأتِ (الهدى) معرفة؟ لأن التنكير للتعظيم؛ فعظّم الله أمرهم وشأنهم، وأي هداية أعظم ممن اعتقد اعتقادًا صحيحًا وعمل به واستقام على الطريق.

(عَلَىٰ) حرف استعلاء لأن المؤمن مستعلٍ بإيمانه ويقينه وتقواه وحبه وإقباله على الله وتركه للدنيا والانتصار على النفس؛ وأعظم شيء الانتصار على النفس الأمارة بالسوء التي تسحب النفس للشهوات، وكل هذا بفضل من الله دون عُجْب أوغرور.

وعلى خلاف ذلك نجد استخدام الحرف (في) في القرآن يستخدم مع أهل الضلال مثل قوله تعالى :(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سبأ: 24) جاءت (على) مع الهدى و(في) مع الضلال؛ فلفظ (على) مع المؤمنين من العلو أما الضال منغمس في الشهوات فيصعب عليه أن يخرج من هذا البحر العظيم بحر الشهوات والشبهات.

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب فما دام الإنسان على طريق أهل السنة والجماعة فهو من المفلحين الفائزين.

- بعدما ذكر الله عز وجل أحوال المؤمنين وأثنى عليهم شرع في الكلام عن المنافقين وعن الكفار

" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(6) "

<u>أما عن تفسير الآية:</u> فالمعنى أن الكافرين سواء أأنذرتهم يا محمد أم لم تنذرهم لن يؤمنوا والسبب أن الله ختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة وأيضا لهم عذاب عظيم.

<u>أما عن تدبر الآية</u> :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) المعنى أن فريقًا من الكفار لن يؤمنوا لك يا محمد وليس كل الكفار لأن بعضًا من الآيات الأخرى أخبرت أن بعض الكفار سيؤمنون مثل قوله تعالى (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) [الأنفال:38].

(كَفَرُوا) الكُفر من التغطية، وكَفْر الشيء ستره وتغطيته، والكفر أنواع منه(الجحود) ككفر فرعون، وكفر(إباء واستكبار) ككفرإبليس.

(أَأَنْذَرْتَهُمْ) الهمزة الأولى الراجح فيها أنها همزة التسوية؛ أي <u>سواء</u> أَأَنْذَرْتَهُمْ أم لم تنذرهم فالنتيجة واحدة.

" خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(7) "

(ختم) الختم معناه الاستيثاق من الشيء كي لا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما دخل فيه، ومعنى الاستيثاق أي أن الشيء الذي خرج لن يدخل والذي دخل لن يخرج؛ فإذا ثبت في القلب النفاق والكفر فلن يخرج وبالتالي لن يدخل الإيمان وذلك نتيجة لعدم اتعاظهم بكل الرسائل والآيات التي تُرسَل إليهم مرة بعد مرة فختم الله على قلوبهم.

(عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) أي أن كل الآلات التي تؤدي للانتفاع لن ينتفع بها.

وبدأ بـ **(قلوبهم)** لأنها أكثر آلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان فالقلوب التي يعقل بها الإنسان هي التي تنتفع.

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ) المقصود هنا الاستجابة والاتعاظ والفهم، أي مهما سمع الحق لا يستجيب ولاينتفع.

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ) نلاحظ أن كلمة (قلوب) و(أبصار) جاءت جمعًا بينما كلمة (سمع) جاءت مفردة، فلماذا وضع المفرد بين جمعين؟

(القلوب) و(الأبصار) أسماء والاسم يُجمَع لامانع، لكن (السمع) مصدر والمصدر لا يُجمع ولا يُثَنّى لأنه يجري مجرى الفعل.

(غِشَاوَةٌ) أي تغطية الشيء تغطية كاملة بحيث لا يظهر منه شيء.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) العذاب في القرآن يأتي على أنواع:

مهين وأليم وعظيم ومقيم..... وكل كلمة لها معنى ومغزى خاص بأهلها

(العذاب العظيم) :- قد يُذكر مع المسلم وغير المسلم مثل قول الله تعالى في حادثة الإفك (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور: 14].

(العذاب الأليم) :- قد يُذكر مع المسلم وغير المسلم، وهو العذاب المؤلِم والألم قد يكون نفسيا أو بدنيًّا فتتألم النفس أو يتألم الجسد.

(العذاب المهين) :- فلا يذكر في القرآن إلا مع الكافر مثل قوله تعالى: (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) [البقرة: 90] لماذا؟

(مهين) لأن الكافر في الدنيا كان متكبرًا مستعليًا على الله وأوامره فكان الجزاء من جنس العمل.

(العذاب المقيم):- أيضا لا تأتي إلا مع الكافرين لأنهم مخلدون في النار فمعنى مقيم دائم لا ينفك عنه؛ فعقيدة أهل السنة والجماعة أن المسلم

العاصي الذي يموت على التوحيد غير مخلد في النار فهو إما أن يعفو الله عنه ويدخله الجنة، أو يُعَذَّب في النار بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة.

لذلك لا يُذكَر العذاب المقيم ولا المهين مع المسلم وهذا من فضائل التوحيد فحتى العذاب لايُهان المسلم فيه ولايُخلد.

" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9) "

هذه الآية نزلت في المنافقين؛ والمنافق مَن يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ) والخداع من الإخفاء أي أخفى الكفر وأظهر الإيمان، والخداع من البشر مذموم من كل وجه، أما صفة الخداع في حق الله فهي من صفات الكمال نثبتها لله لكن ليس من كل وجه ففي قوله تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [النساء:142] لفظ الخداع واحد لكن المعنى مختلف فخداع الله لهم كان مقابل خداعهم فكان ذلك من صفات الكمال لله عز وجل.

" فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(10) "

أي في قلوبهم مرض الشك، والمرض هو خروج الشيء عن اعتداله و قد يكون في القلب أو الجسد، ومرض القلب في هذه الآية شُبهة وليس شهوة لأن الشك في الدين يُعد من أمراض الشبهات وهذه الكلمة جاءت في سياق الحديث عن المنافقين.

(فزادهم الله مرضا) على الرغم من أن الله رحيم لا يعجل بالعقوبة إلا أنه زادهم مرضا لأنه سبحانه يعلم في سابق علمه أن هؤلاء لن يؤمنوا فختم على قلوبهم فلا يدخل فيها ماخرج منها ولا يخرج منها ما دخل فيها فزادهم مرضًا على مرض.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) أي لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا بألم الفضيحة وإظهار نفاقهم أمام الناس، وفي الآخرة العذاب أعظم وأشد.

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(11)
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ(12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا
آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعْلَمُونَ(13) "

هذه المناظرة بين المؤمنين والمنافقين، والمناظرات في القرآن تزيد المسلم فهمًا وإقرارًا وتكون إبطالا للشبهات الفاسدة مما يشفي القلوب ويزداد المرء معها إيمانًا.

(قِيلَ) الفعل مبني للمجهول كي يخبر أن أي قائل يقول هذا القول سواء كان الرسول أوالمؤمنون أو غيرهم فهم لن يقبلوا وذلك حتى يُبيّن شدة الانكار والاعتراض منهم.

قال المؤمنون (لا تفسدوا في الأرض) فأجاب المنافقون (إنما نحن مصلحون) وكأنهم يحاولون قطع المناظرة لأنهم لا يريدون الهداية أبدًا لكن الله لم يُعطِ لهم هذه الفرصة فأسجل عليهم أربع إسجالات:-

1- تكذيبهم.

2- أخبر أنهم مفسدون.

3- حصر الفساد فيهم (هُمُ الْمُفْسِدُونَ).

4- وصفهم بغاية الجهل.

فنفى عنهم الشعور (وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) وبعد ذلك نفى عنهم العلم (وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) وهذا أشد أنواع الذم والتجهيل من الله لهم لأن الإنسان إذا كان فاسدًا وفساده ظاهر للجميع وهو وحده الذي لا يراه فهذا غاية السَفَهْ، والسَفَهْ غاية الجهل.

(السُّفَهَاءُ) السَفَهْ هو الجهل بما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه بل والإقبال على ما يضره في الدنيا والآخرة، وهذا غاية الجهل.

فنفي (الشعور) نتيجة فساد آلات الإدراك التي يدرك بها الإنسان الحق، ونفي (العلم) نتيجة السَفَهْ الذي هو غاية الجهل، فتضمنت الآيتان جهلهم، وفساد آلات الإدراك لديهم بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا، والشر خيرًا.

ففي المرة الأولى أثبتوا لنفسهم الصلاح، وفي المرة الثانية زادوا على ذلك وذَمّوا مَن أراد الإصلاح.

وعلى الرغم من أن الآية تتحدث عن المنافقين إلا أن بعض المسلمين يفعلون مثل هذه الأفعال، أسأل الله أن يعلمنا ويفهمنا ويبصّرنا ويصلح لنا الآت الإدراك حتى نرى الحق حقا والباطل باطلا.